

الحرب والتقدم الاجتماعي

انتصر دارون في مذهبه على الفول بنشوء الاحياء دون غيرها وارتقاها شيئاً فشيئاً على مر العصور والاحقاب من ابطء الجلات وادناها الى اكثرها تعقيداً وتركيباً . ولكن غيره من العلماء توسعوا في هذا الحكم وجعلوا ناموس النشوء والارتقاء شاملاً لجميع الخليقة من حية وغير حية فادخل الفلكيون الانلاك تحته وجعلوها ناشئة مرتقية من السديم اللطيف الى اكثف السموم والاقمار . وكثب كبار العلماء كالفيلسوف سبنسر وغيره المجلدات الضخمة في بيان ان الاجتماع خاضع لهالك الناموس ايضاً وان الجمعية الانسانية ارتقت من البداوة الاولى العارية من كل لباس وزخرف وبهجرة الى الحضارة الحاضرة الكاسية من كل ثوب وطلاء ومرط ومرحل

انتشر هذا المذهب في الربع الاخير من القرن الماضي . منذ اول انتشاره الى الآن عم الاعتراف بان الخليقة صائرة من حين الى احسن وان كل شيء فيها متقدم ومرتق بلا سبيل الى المكث والتقدم وان يكن ذلك التقدم وذلك الارتقاء بطيئين في سيرها مختلفين في حركاتهما الى امام وإلى فوق . لذاذا قال فائل بعد ذلك ان هذا الشيء ما كث بحيث هو لا يرى متقدماً ولا متأخراً بل انه يرجع القهقري كانت قوله هذا محلاً للشك والاضطراب او الانكار البات . وهذا ما قاله الأستاذ هاورث من اساتذة جامعة كليفورنيا في مقالة نشرت في مجلة العلم العام الاميركية . قلل ما ملخصه :

اعندنا نحن الاميركيين فكرة التقدم الاجتماعي والتحدث بالآراء والعوامل والظروف والارتقائية حتى ربح في اذهاننا ان التقدم عام وانه في طبيعة الاشياء . على ان الامر ليس كذلك اذ ليس هناك دليل كاف يبريد الاعتقاد الشائع بان الناس عامة ومنهم اهم اوروبا وامتنا آخذون في سنن الارتقاء رغم ضرورهم وجنونهم وخروجهم عن دائرة الاعتدال وتمايهم في نيات النواية والضللال . لان فكرة تقدم الاجتماع حديثة العهد وكل ما بحث ولو بحثاً سطوياً في حوادث النشوء الاجتماعي المتطرفة في بطون التواريخ يعلم ان ذلك التقدم مفرد محلي محصور في زمانه ومكانه . فان الحضارات الاولى كانت غير متقدمة ولا يزال بعض الامم الحديثة كالامة الصينية مثلاً ما كنا حيث كان فضلاً عن ان الاضططاط والتأخر القومي ظاهرتان من ظواهر التاريخ كنا آخر اسبانيا ورومية واليونان ومصر ولقد كانت فيما مضى

موطن مدنيات عالية الكعب وارفة الظل . والحق يقال ان التأخر القومي أكثر شيوعاً من التقدم القومي وقد صدق « ماين » حيث قال « ان جمود النوع الانساني هو القاعدة وتقدمه هو الشذوذ »

واذا سلمنا جدلاً ان مذهب الشؤء الاجتماعي صحيح فان جميع الشعوب والامم تالت بمض قسط من التقدم في تاريخها . ولا بد ان تكون الامم الجالسة في مكائنها من قديمة ومعاصرة قد تقدمت قبل الجمود . وغرض هذه المقالة درس هذا التقدم وبخصوصاً الدور الذي مثله الحرب على مسارح التقدم الاجتماعي في الماضي والحال

يقولون ان الحرب من العوامل اللازمة لتقدم الاجتماع ويظهر ان هذا القول اعتقاد شائع في كثير من البلاد . ولكنني متين ان هذا القول وهذا الاعتقاد لا مسوغ لها . قلب ما شئت من كتب الاجتماع ترى الكتاب متفقين على تعيين عوامل التقدم الاجتماعي وعلى بيان الاحوال والعناصر والمؤثرات التي تعمل على تربية المدنية وان كانوا لا يفرقون تمام التفريق بين القوى والطرق والوسائل التي تستخدم لذلك . فالمؤرخ الانكليزي « بكنل » يعزو الثمرات الاجتماعية في كتابه « تاريخ مدينة انكلترا » الى الهواء والطعام والتربة والطبيعة صوماً . ومن رأي « جون فك » الفيلسوف الاميركي ان الجمعية الانسانية ومحيطها هما العاملان الاولان في التقدم الاجتماعي . ولا يريد بالحيط مجرد الهواء والتربة والنبات والحيوان والارتفاع وامتداد السواحل وماعية المناظر الطبيعية والموقع الجغرافي بالنسبة الى سائر البلاد بل يريد ايضاً كما قال « الآراء والدواظف والتجارب والمشاهد التي كانت في الماضي نقلت البناء على يد التواريح والتقاليد والآثار . وكذلك آراء الامم المعاصرة وعاداتها وطباعها المعروفة »

وقسم كارفر الانكليزي عوامل التقدم كما يأتي :
 - العوامل العقلية .
 - العوامل الاجتماعية والاقتصادية .
 - العوامل السياسية والقانونية .
 ومنهم من اضاف اليها العوامل الجغرافية والبيولوجية والميجينية والادبية والدينية الى آخر ما هنالك

واذا صرنا النظر عما كتب في هذا الموضوع وجدنا ان العوامل التي تعمل على تقدم المجتمع قسماً خارجية وداخلية . اما الخارجية فتتألف من ثلاثة طبيعية وحيوية واجتماعية . والاول منها يشتمل على التربة والهواء وطبيعة البلاد الخ . والثاني لباثها وحيوانها . والثالث

الاوراق الاجتماعية التي تؤثر في مجتمع معين بالطرق المختلفة . واما العوامل الداخلية فقسمان الناس والاشياء التي عملها الناس او بعبارة اخرى الابتكار ونتائج تلك الابتكار كما تظهر في الفنون والآداب والعلم والفنون والقوانين والاملاك والحكومات والاديان وما جرى بحرى ذلك . واهم العوامل الداخلية العامل الذي تشتق منه سائر العوامل وهو القوة المفكرة التي هي بمنزلة الدليل للارادة . وقد صدق من قال ان الحضارة بنت الارادة والعقل وثمره ازديادها وتمازجها

وخلاصة ما تقدم اولاً ان عوامل الارتقاء الاجتماعي كثيرة فيجب الحذر والاحتراس من ان تنسب الى احدها اكثر مما يحق له عند بحثنا فيه . وثانياً ان الحرب لم تذكر بين تلك العوامل ولم ذلك ؟ لأنها أهملت ام لانه لا يصح حسابها عموماً من عوامل التقدم ؟ والجواب هو الامر الثاني فان الحرب ليست من عوامل التقدم وهذا يتضح لنا من البحث في معنى لفظة «عامل» . فالعامل هو كل شيء يستخدم للوصول الى نتيجة معينة . وعند العوامل التي تُستخدم للوصول الى نتيجة معينة هو على الغالب محدود ولكن طرق استخدامها مختلفة الى ما لاحد له . وترانا نأخذ هذه ونبتدئ تلك حساباً بيننا ولكن العوامل لا تزال واحدة محدودة . فهل الحرب طريقة من طرق التقدم الاجتماعي

ان كانت الحرب طريقة من طرق التقدم الاجتماعي فهي ليست طريقة وحيدة ولذلك يمكن مقابلة مفعولها بمفعول الطرق الاخرى . وقيمتها في هذا الشأن تدور على انفعاتها وتأثيرها بالنسبة الى وسائل التقدم الاخرى التي يمكن تصورها كالتربية والتعليم والتجارة والفر وسائر طرق الاتصال والانتقال وهي وحدها التي يستطيع بها احد المجتمعات ان يساعد على تقدم مجتمع آخر . فاذا ظهر بالمقابلة فضل طريقة على اخرى فمن الخطل والجهل اختيار الفضول على الناضل

على ان الحرب ليست واسطة لتقدم المجتمع الا مجازاً لان الواسطة يجب ان تكون اسمى مظاهر المعرفة والادراك كما قال دي غريف العالم الفرنسي او اسمى مظهر من مظاهر القوة المدركة كما قال سبنسر . ذلك لانها كيفما كانت وابتداء كانت تطوي على غاية يراد بلوغها وعلى اختيار الطرق المؤدية اليها واستخدامها استخداماً مبنياً على تدبير وروية . وقبل حساب الحرب واسطة للتقدم الاجتماعي يجب اولاً حساب التقدم غاية مرومة ثم حوض الحرب على نية ترقية الاجتماع بها ولا يكاد يجعل ان امة ما شهرت حرباً عن تدبير وعمد وهي تنوي

بها ترقية حال المجتمع . ولا يكاد يحدث أيضاً ان امة تتمثل ذلك في مستقبل الزمان . فاذا لم يفعل احد ذلك فلا يصح ان نعد الحرب واسطة من وسائل التقدم الاجتماعي وانما يمكن استخدامها من حين الى آخر لبلوغ غايات لها علاقة بالحكومة او الدولة او الطبقات المختلفة في الامة

وأبنا ان الحرب ليست عاملاً للتقدم ولا واسطة للارتقاء الاجتماعي . فبناء على ذلك ليست واسطة لها لان الراسطة شيء يختار لبلوغ غاية او هي ما يتوسط بين الحالة الحاضرة والغاية المطلوبة . فان لم تجعل حكومة من الحكومات او امة من الامم او جمعية من الجمعيات التقدم الاجتماعي غرضاً نصب عينها ولم تتخذ الحرب آلة لبلوغ ذلك الغرض فلا يجوز عدّ الحرب واسطة لتلك التقدم او عاملاً من عوامله

لكن اذا لم تكن الحرب شيئاً من الاشياء التي تقدم الكلام عليها فما هي اذاً ؟ وما هي علاقتها الحقيقية بالتقدم الاجتماعي ؟

الحرب في نظر الاجتماع شكل من اشكال تفاعل الامم المختلفة . فان هذه الامم التي تخوض غمارها تصادم وكل منهن "تطلب ما تحب في مصليتها ورفاهها . واذا خاضت امة من الامم الحرب فاما تخوضها لتحقيق امنية واحدة من امانتي احدى الجماعات التي يتألف المجتمع الاعظم منها لا لادراك غرض واسع النطاق يراد به ترقية ذلك المجتمع برمتيه . فالتقدم الاجتماعي ليس غاية مقصودة بها وان تكن كل امة من الامم المتحاربة تدعي ان غايتها تطابق التقدم الاجتماعي وانها تدافع عن كل ما كان غالي القيمة في الحضارة العامة . واذا لم يكن غرض الحرب التقدم الاجتماعي فهي شيء غير مقصود من الوجهة الاجتماعية وبعبارة اخرى ليست عملاً صناعياً من اعمال المجتمع الانساني بأية قصداً لتربية شؤونه بل ظاهرة طبيعية معرفة كالزلازل والجماعات والاورش والسيول

فليس للحرب والحالة هذه علاقة بالتقدم الاجتماعي الا لما كان لها صورة من صور الاعمال التي تقدم عليها الجماعات وقد تكون خبيثتها تقدماً او تأخراً . فهي اوضح مثال للظواهر الاجتماعية غير المقصودة اي التي يقدم الناس عليها بلا انعام نظر ولا روية كما قال دي غريف

لكن يقول قائل ان الحرب افنت في بعض الاحيان الى التقدم الاجتماعي . وهذا وهم والصحيح انها افنت في بعض الاحيان الى التأخر . فقد نشأت بها ممالك وايدت ممالك قامت مدينتان واندست مدينتان وكان اثر ذلك في التقدم الاجتماعي على المدى عريضاً

غير منظور ولا مقصود أو مثل اثر القوى الطبيعية العمياء . فان هذه القوى غير المدركة تفضي احياناً الى نتائج مروجة للتقدم واحياناً الى نتائج مضادة له . ولكنها لا تدور على انتاج تلك النتائج . فالجرب لذلك داخلة في باب تصرف الطبيعة لا في باب تصرف العقل . ومن خصائص الباب الاول الاسراف . فان الطبيعة مشهورة باسرافها والتقدم الذي تحدثه يفي كثير التفقة غير اكيد . ولما كانت الحرب ظاهرة طبيعية في نظر الاجتماع فلا غرابة اذا ظهر عليها الاسراف . وربما كانت اعظم نموذج على الاسراف الاجتماعي . وسواء صدر الاسراف من الفرد او من الجماعة فهو عنوان سفه الرأي وقلة الادراك . فان وظيفة الادراك استخدام الاقتصاد في الوقت والوسيلة والعمل الجريغ غاية معينة . فاذا وجد الادراك الاجتماعي لترويج التقدم الاجتماعي لم يمد الى الحرب لما فيها من الاسراف وعدم الثقة بالنتائج . ولا بد ان يفضي التقدم الاجتماعي العام الى منع الحرب اذ اطراد التقدم ودوام الحرب قبيضان لا يجتمعان

الجندي الفرنسي

نشرت احدى صحف لندن اليومية الكبرى في صدرها مقالة لكاتب كبير معروف ترجمها عن الفرنسية عنوانها « صفان من الشجاعة » قدها مقدمة صغيرة . والاصل الفرنسي من قلم المسيو جورج بيردون نشر في مجلة « ماركور دي فرانس » والمقدمة من قلم المستر وورد بريس المترجم نشرها في صدر الداهلي مايل . وقد رأينا ان ترجمتها الى العربية لما تضمنته من الوصف البليغ والمعاني البديعة قال الكاتب

« مما يقضي بالعجب في هذه الحرب العظمى التي انتضت منا جهوداً لم تقتض حرب قبلها انه لم يحاول احد درس سلوك الجندي في ساحة القتال وشرح ما يجول في صدره من الخاوف وما يتخلج قيو من الآمال

« نرى صحبنا يغادروننا الى ميادين القتال - رجال كرموا الثعب واحبوا الراحة واولعوا باهلهم وشاقتهم الحياة كما تشوقنا . واول ما نسمع عنهم بعد غيابهم عنا انهم يحترقون النزع وحشرجة الصدر بلا شكاية ويجردون بارواحهم والتكئة على شفاههم - ذلك كله ليتقدموا ليد باع او باعين من الارض